

الأربعين بداية المسيرة (1-2)

قال الإمام الباقر (ع) «مُرُوا شِيعَتَنَا بِزِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ (ع) فَإِنَّ إِيَّانَهُ مُفْتَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يُقِرُّ لِلْحُسَيْنِ بِإِمَامَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (1)

وقال الإمام الصادق (ع) «حَقُّ عِلَى الْغَنِيِّ أَنْ يَأْتِيَ قَبْرَ الْحُسَيْنِ (ع) فِي السَّنَةِ مَرَّةً تَيْنَ وَحَقُّ عِلَى الْفَقِيرِ أَنْ يَأْتِيَ تَيْحَهُ فِي السَّنَةِ مَرَّةً». (2)

ومع عدم التمكن من السفر إلى قبره الشريف تكون الزيارة حينئذ حيث يكون الإنسان.

روى سدير أن الإمام الصادق (ع) سأله «يَا سَدِيرُ تَكْثِيرُ زِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ بِنِ عِلِّيٍّ (ع)؟ قُلْتُ إِنَّهُ مِنْ بَعِيدٍ». فَقَالَ: «أَلَا أَعْلَمُكَ شَيْئاً إِذَا أَرَدْتَ فَعَلَاتَهُ كُنَيْتَ لَكَ بِذَلِكَ الزِّيَارَةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: اغْتَسِلْ فِي مَنْزِلِكَ وَانْزِلْ إِلَى سَطْحِ دَارِكَ وَأَشِرْ إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ تَكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ الزِّيَارَةَ». (3)

وكان من تخليدها أيضاً ذكرى عاشوراء التي تتكرر كل عام في يوم العاشر من شهر محرم الحرام، وذكرى الأربعين وهي أيضاً تتكرر كل عام في العشرين من شهر صفر، أي بعد مرور أربعين يوماً على استشهاد (ع).

وقد حث أئمة أهل البيت (ع) على إحياء هاتين المناسبتين (عاشوراء والأربعين) بالزيارة والعزاء والبكاء والرثاء.. وغيرها مما يدخل في تخليد القيم التي جاهد من أجلها الإمام الحسين (ع) بين الناس وعلى مر العصور.

روى علقمة عن الإمام الباقر (ع) في حديث زيارة الإمام الحسين يوم عاشوراء من قرب وبعد. قال (ع) «ثُمَّ لِيَذْذُبِ الْحُسَيْنِ (ع) وَيَذْكِيهِ، وَيَأْمُرُ مَنْ فِي دَارِهِ مِمَّنْ لَا يَتَّقِيهِ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ، وَيُقِيمُ فِي دَارِهِ الْمُصِيبَةَ بِإِطْهَارِ الْجَزَعِ

عَلَيْهِ، وَلَيُعَزِّرْ بِعُضُّهُمْ بِعُضَاً بِمُصَابِهِمْ بِالْحُسَيْنِ (ع) وَأَنَا ضَامِنٌ لَهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ ذَلِكَ يَعْذِي ثَوَابَ أَلْفِي حَجَّةٍ وَأَلْفِي عُمْرَةٍ وَأَلْفِي غَزْوَةٍ، قُلْتُ: أَزَنَ الضَّامِنُ لَهُمْ ذَلِكَ وَالزَّعِيمُ؟ قَالَ: أَزَنَا الضَّامِنُ وَالزَّعِيمُ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، قُلْتُ: وَكَيْفَ يُعَزَّرِي بِعُضُنَا بِعُضَا؟ قَالَ تَقُولُ عَطَّيْنِ اللَّهُ أَجُورَنَا بِمُصَابِنَا بِالْحُسَيْنِ (ع) وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الطَّالِبِينَ بِثَأْنِهِ مَعَ وَلِيِّهِ وَالْإِمَامِ الْوَهَّابِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَنْشُرَ يَوْمَكَ فِي حَاجَةٍ فَافْعَلْ فَإِنَّهُ يَوْمٌ نَحْسُ لَا تُقْضَى فِيهِ حَاجَةٌ مُؤْمِنٍ وَإِنْ قُضِيَتْ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهَا وَلَا يَرَى فِيهَا رُشْدًا، وَلَا يَدَّخِرَنَّ أَحَدُكُمْ لِمَنْزِلِهِ فِيهِ شَيْئًا فَمَنْ ادَّخَرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيمَا ادَّخَرَ وَلَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِي أَهْلِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ ثَوَابَ أَلْفِ حَجَّةٍ وَأَلْفِ عُمْرَةٍ وَأَلْفِ غَزْوَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَكَانَ لَهُ كَذَوَابِ كُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ وَصِدِّيقٍ وَشَهِيدٍ مَاتَ أَوْ قُتِلَ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. (4)

وفي خصوص زيارة الأربعين ورد عن الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال «عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ، صَلَاةُ الْخَمْسِينَ، وَزِيَارَةُ الْأَرْبَعِينَ، وَالتَّخَتُّمُ فِي الْيَمِينِ، وَتَعْفِيرُ الْجَبِينِ، وَالْجَهْرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». (5)

يوم الأربعين

قالوا إن في هذا اليوم من سنة إحدى وستين للهجرة كان يوم اللقاء، حيث عاد آل الحسين إلى كربلاء بعد رحلة العذاب بين الكوفة والشام.

فكان اللقاء مع النور المنبعث من القبور، وكان اللقاء أيضاً مع الذكريات ... العزة، الكرامة، البطولة، الطهر، الإيمان ... تزدحم الذاكرة بهذه الصور، وتضطرب في ترتيبها.

وتزداد ازدحاماً واضطراباً حين يمارجها الحزن والألم ... أعزتهم قتلًا! وأية قتلة؟ ربما يعجز القلم عن ذكر تفاصيلها، ولكنها سيدة الموقف فكل تلك التفاصيل كانت حاضرة في الذاكرة.

شيء واحد من تلك المعركة لم يُستدع من الذاكرة، بل كان الرفيق طوال هذه الرحلة؛ فمع كل إطلالة نحو السماء كان يطل عليهم وكأنه يُسمعهم مقولة "رضا بقضائك".

ذلك الشيء هو: الرؤوس المرفوعة بالأرماح.

وقالوا إنه بالإضافة إلى ذلك هو يوم الالتصاق، أو "رد الرؤوس" فبعد أن طيف بها من مكان إلى آخر، تمكن الإمام علي بن الحسين (ع) من ضمها إلى الأجساد.

وفي ذلك يقول السيد هاشم الستري البحراني:

قم جدد الحزن في العشرين من صفر

ففيه ردت رؤوس الال للحفر

آل النبي التي حلت دماؤهم

في دين قوم جميع الكفر منه بري

يا مؤمنون احزنوا فالنار شاعلة

ترمى على عروة الإيمان بالشرر

ضجوا لسفرتهم وابكوا لرجعتهم

لا طبت من رجعةٍ كانت ومن سفر

وقالوا إنه يوم العودة إلى أرض الوطن، والعودة لا تعني انتهاء المعركة، بل استمرارها ولكن بشكل

آخر، فقيم الحسين وأهدافه هي قيم السماء، وقيم السماء خالدة رغم كل الظروف، وباقية على مر الدهور، وكما أن حاملها لا يتأثرون بالإرهاب والقتل والسبي والتشريد، كذلك لا يتأثرون بالعودة والترغيب.

وفي طريق العودة إلى مدينة النبي (ص)، وعند اقترابهم منها، حط الإمام السجاد (ع) رحله وضرب فسطاطه وأنزل نسائه، ثم توجه إلى بشير بن حذلم وقال له: يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعرا، فهل تقدر على شيء منه؟

قال: بلى يا ابن رسول الله إنني لشاعر.

قال: فادخل المدينة وانع أبا عبد الله (ع).

قال بشير: فركبت فرسي وركزت حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي (ص) رفعت صوتي بالبكاء و أنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها

قتل الحسين فادمعي مدرار

الجسم منه بكرلاء مضرج

والرأس منه على القناة يدار

قال: ثم قلت هذا علي بن الحسين (ع) مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم و نزلوا بفنائكم و أنا رسوله إليكم أعرفكم مكانه.

فما بقيت في المدينة مخدرة و لا محجة إلا برزن من خدورهن مكشوفة شعورهن مخمشة وجوههن ضاربات خدودهن يدعون بالويل و الثبور فلم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم و لا يوماً أمر على المسلمين منه وسمعت جارية تنوح على الحسين فتقول:

نعى سيدي ناع نعاہ فأوجعا

وأمرضني ناع نعاہ فأفجعا

فعيني جودا بالدموع وأسكبا

و جودا بدمع بعد دمعكما معا

على من دهى عرش الجليل فزرعنا

فأصبح هذا المجد و الدين الجدعا

علي بن نبي ا و ابن وصيه

وإن كان عنا شاحط الدار أشسعا

ثم قالت: أيها الناعي جدت حزنا بأبي عبد ا، وخذشت منا قروحا لما تندمل، فمن أنت رحمك ا؟

قلت أنا بشير بن حذلم وجهني مولاي علي بن الحسين عليهما الصلاة والسلام، وهو نازل في موضع كذا و كذا مع عيال أبي عبد ا (ع) ونسائه.

قال: فتركوني مكاني وبادروا، فضربت فرسي حتى رجعت إليهم فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع فنزلت عن فرسي وتخطيت رقاب الناس حتى قريت من باب الفسطاط، وكان علي بن الحسين (ع) داخلاً ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له، وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين الجواري والنساء.

والناس من كل ناحية يعزونه فضجت تلك البقعة ضجة شديدة فأوماً بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم، فقال(ع) اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ بَارِئِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ الَّذِي بَعْدَ فَارُتَهَجَ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَقَرَّبَ فَشْهَدَ الذِّجْوَى نَحْمَدُهُ عَلَيَّ عَظَائِمِ الْأُمُورِ وَفَجَائِعِ الدُّهُورِ

وَأَلَمَ الْفَجَائِعِ وَمَضَاضَةِ اللَّوَادِعِ وَجَلِيلِ الرَّزْءِ وَعَظِيمِ الْمَصَائِبِ
الْفَاضِلَةِ الْكَاطَةِ الْفَادِحَةِ الْجَائِحَةِ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ وَلَهُ
الْحَمْدُ ابْتَلَانَا بِمَصَائِبِ جَلِيلَةٍ وَثُلُمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ عَظِيمَةٍ قُتِلَ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ وَعَتَرَتُهُ وَسُبْيَ نِسَاؤُهُ وَصَبِيَّتُهُ وَدَارُوا بِرَأْسِهِ فِي
الْبُلْدَانِ مِنْ فَوْقِ عَامِلِ السِّنَانِ وَهَذِهِ الرَّزِيَّةُ الَّتِي لَا مِثْلَ لَهَا
رَزِيَّةٌ أَيُّهَا النَّاسُ فَأَيُّ رَجَالَاتٍ مِنْكُمْ يُسَرُّونَ بَعْدَ قَتْلِهِ أُمُّ أَيْسَةَ
عَيْنٍ مِنْكُمْ تَحْبِسُ دَمْعَهَا وَتَضَنُّ عَنْ أَنْهَمَالِهَا فَلَقَدْ بَكَتِ السَّبْعُ
الشِّدَادُ لِقَتْلِهِ وَبَكَتِ الْبِحَارُ بِأَمْوَاجِهَا وَالسَّمَاوَاتُ بِأَرْكَانِهَا
وَالْأَرْضُ بِأَرْجَائِهَا وَالْأَشْجَارُ بِأَغْصَانِهَا وَالْحَيَّاتُ وَلُجَجُ الْبِحَارِ
وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ أَجْمَعُونَ أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ
قَلْبٍ لَا يَنْصَدِعُ لِقَتْلِهِ أُمُّ أَيْسَةَ فَوَادٍ لَا يَحْنُ إِلَيْهِ أُمُّ أَيْسَةَ سَمِعَ
يَسْمَعُ هَذِهِ الثُّلُمَةَ الَّتِي ثُلِمَتْ فِي الْإِسْلَامِ أَيُّهَا النَّاسُ أَصْبَحْنَا
مَطْرُودِينَ مُشْرَدِينَ مَذْودِينَ شَاسِعِينَ عَنْ الْأَمْصَارِ كَأَنَّا أَوْلَادُ تُرْكٍ
وَكَا بُلٍّ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ اجْتَرَمْنَاهُ وَلَا مَكْرُوهٍ ارْتَكَبْنَاهُ وَلَا ثُلُمَةٍ فِي
الْإِسْلَامِ ثَلَمْنَاهَا مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقُ
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ النَّبِيَّ تَقَدَّسَ إِلَيْهِمْ فِي قِتَالِنَا كَمَا تَقَدَّسَ
إِلَيْهِمْ فِي الْوَصَاءَةِ بِنَا لَمَّا ارْزَادُوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا بِنَا فَإِنَّا لِلَّهِ
وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ مِنْ مُصِيبَةٍ مَا أُعْظِمَهَا وَأَوْجَعَهَا وَأَفْجَعَهَا
وَأَكْظَمَهَا وَأَفْظَمَهَا وَأَمَرَّهَا وَأَفْدَحَهَا فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُ فِيمَا
أَصَابَنَا وَمَا بَلَغَ بِنَا إِلَهَهُ عَزِيزُ ذُو انْتِقَامٍ. (6)

والسؤال هو هل يمكن أن نعتبر أحد هذين القولين، أو هذه الأقوال الثلاثة جواباً لتسميتها بهذا الاسم؛
أعني الأربعين؟

والجواب

أولاً

من المستبعد جداً تطابق هذه الأقوال مع العشرين من صفر (الأربعين) لضيق الزمان على هذه الرحلة الطويلة، خصوصاً مع رداءة الوسائل المستخدمة التي استخدمها الأعداء كالنياق الهزل وما أشبه، والتفاصيل التي رافقت الرحلة وعرض من كانوا فيها على البلدان الواقعة بين الكوفة والشام مما يستوعب زماناً أكثر من السفر الاعتيادي، ويتأكد هذا إذا علمنا أن عملية السبي يراد منها تحقيق بعدين:

1. إعلامي يقصد منه حشد التأييد وإرهاب المخالفين.

2. نفسي يراد منه إلحاق الأذى والمهانة بآل الحسين (ع) وعيالاته.

قال العلامة المجلسي مستنداً على الاستبعاد:

إن عبيد ا [] بن زياد لعنه ا [] كتب إلى يزيد يعرفه ما جرى ويستأذنه في حملهم ولم يحملهم حتى عاد الجواب إليه، وهذا يحتاج إلى نحو عشرين يوماً أو أكثر منها، ولأنه لما حملهم إلى الشام روي أنهم أقاموا فيها شهراً ... وصورة الحال تقتضي أنهم تأخروا أكثر من أربعين يوماً من يوم قتل (ع) إلى أن وصلوا العراق أو المدينة . وأما جوازهم في عودهم على كربلاء فيمكن ذلك ولكنه ما يكون وصولهم إليها يوم العشرين من صفر. (6)

ثانياً

قال الشيخ الكفعمي إنما سميت بزيارة الأربعين لأن وقتها يوم العشرين من صفر وذلك لأربعين يوماً من مقتل الحسين (ع)، وهو اليوم الذي ورد فيه جابر بن عبد ا [] الأنصاري صاحب النبي (ص) من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين (ع) فكان أول من زاره من الناس. (7)

وقال العلامة المجلسي:

ولعل العلة في استحباب الزيارة في هذا اليوم هو أن جابر بن عبد ا [] الأنصاري رضي ا [] عنه في مثل هذا اليوم وصل من المدينة إلى قبره الشريف وزاره. (8)

وبغض النظر عن الحدث المصاحب لهذا اليوم إلا أنه من المؤكد أن أحداثاً جمّة وخطيرة حدثت منذ يوم

العاشر إلى يوم الأربعين ويظهر من تلك الأحداث أن هناك تحولاً في أسلوب المواجهة، وهذا التحول لا يمس الأسس والقيم التي ارتكز عليها الإمام الحسين في نهضته، وإنما يقتصر على شكل وأسلوب المواجهة.

ومما لاشك فيه أن استشهاد الإمام (ع) أحدث هزة عميقة في نفوس أبناء الأمة الإسلامية مما أدى إلى بروز فرص جيدة للعمل والتحرك.

فكان لا بد من استثمار ذلك بوسائل أخرى تجتمع مع باقي وسائل النهوض للوصول إلى الهدف الذي قام من أجله الحسين، وضحي بكل غال ونفيس.

وهكذا أصبح يوم عاشوراء درساً مهماً في مواجهة الباطل، وأصبح يوم الأربعين درساً في فضح الباطل وتركيز القيم والمفاهيم النهضوية في الأمة.